

دراسة جديدة في نشأة الطراز المعماري
للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعاقد

(Crusiform Plan)

بقلم الأستاذ الدكتور حسن الباشا

منذ أوائل القرن الخامس الهجري (١١ م) أخذت الدول الإسلامية تسهم بطرق فعالة في إنشاء المدارس باعتبارها مؤسسات تعليمية على مستوى عال هدفها التفتيح في الدين حسب المذاهب السنية ، والتبحر في العلم ونشر الاسلام ، وازدهرت هذه الظاهرة بصفة خاصة في عصر السلاجقة والأتاكية .

وكان الوزير السلجوقي نظام الملك من أعظم مؤسسي المدارس ، وعرفت المدارس التي أنشأها في كثير من مدن الدولة السلجوقية باسم النظامية نسبة إليه ، وكان من أشهرها المدرسة النظامية في بغداد (٤٥٧ - ٤٦٠ هـ / ١٠٦٥ - ١٠٦٨ م) .

وحظيت حركة إنشاء المدارس بالرعاية الفاتحة في عهد السلطان نور الدين محمود ، ومن أعظم منشآته المدرسة النورية الكبرى التي أسسها في دمشق سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) وقد وصلنا منها نقش تذكاري يشير الى أن السلطان نور الدين ألحق بها تربة ليدفن فيها (١) .

وعلى نهج نور الدين في إنشاء المدارس ورعايتها سار صلاح الدين ومن خلفه من الأيوبيين ، فانتشرت المدارس في مصر و سورية والجزيرة العربية

(١) د . حسن الباشا . الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية
مادة " مدرس " .

و بلغ عدد المدارس في مصر وحدها في نهاية العصر الأيوبي خمسة وعشرين مدرسة (١) .

و من المدارس الأيوبية التي بقي بعض آثارها بالقاهرة دار الحديث الكاملية بشارع المعز لدين الله الفاطمي (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) و من المرجح أن المدرسة كانت تشتمل على صحن مستطيل في كل من جانبيه الصغيرين ايوان أحدهما ايوان القبلة وعلى طول الجانبين الكبيرين حجرات ولم يصلنا من مباني المدرسة غير جزء من الايوان الخلفي المقابل لايوان القبلة (٢)

و المدرسة الأخرى التي وصلتنا بعض آثارها من العصر الأيوبي المدرسة الطلاحية (٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م) وقد شيدت على جزء كبير من القصر الشرقي الفاطمي وكان مدخلها يؤدي الى دهليز مستقيم في كل من جانبية باب يؤدي الى فناء مستطيل ينتهي كل من ضلعيه الصغيرين بايوان .

وقد خصص كل ايوان من الايوانات الأربعة لمذهب من المذاهب الأربعة الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي . ولم يبق من هذه المدرسة أو المدارس سوى واجهتها ومذنتها و الايوان الشمالي الغربي و جزء من الايوان المقابل له فضلا عن ضريح السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي شيد خلف الايوان الشمالي الغربي (٣) .

(١) المرجع نفسه والمادة نفسها .

(٢) د . أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني العصر الأيوبي ص ٥٥ - ٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ح ٢ ص ٦٠ - ٧٥ .

وتوالى انشاء المدارس بعد ذلك في عصر المماليك على يد السلاطين
والأمراء وغيرهم من الأثرياء حتى صارت المدارس من أبرز السمات الحضارية
لهذا العصر .

هذا وقد حظيت المدارس المملوكية بكثير من الدراسات ، كما عنى
كتاب المصطلح مثل القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى في صناعة الانشا "
بوظائف التدريس ، وأوصاف المدرسين ووصاياهم وألقابهم وطريقة تعيينهم (١)

كما ارتفعت وظيفة المدرس في عصر المماليك حتى صارت ولايات أكابر
المدرسين في مصر تصدر عن السلطان نفسه (٢) .

وكانت المدرسة أشبه بالكلية الجامعية في العصر الحديث : إذ كانت
مخصصة للتعليم العالي بفرعه المعروفة في تلك العصور . فكانت أكثر
المدارس انتشارا مدارس الفقه ، وقد يضاف الى تدريس الفقه علوم أخرى
ك تفسير القرآن الكريم والقراءات والحديث واللغة العربية والفرائض والحساب
كما كان يدرس أيضا في بعض المدارس العلوم التجريبية مثل الطب والهندسة

(١) ج ١١ ص ٨٢ - ٩١ ص ٢٢٧ - ٢٥٠ . انظر أيضا ابن فضل الله العمري :

التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٣٤ - ١٣٥ ، السبكي : معيد النعم

ومعيد النعم ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) الدكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية

ج ٣ - ص ١٠٦١ .

وربما اقتصت مدارس بعلم واحد مثل دار الحديث الكأمله بالقاهرة و مدرسة الطب المهدبية و مدرستي النحو اللتين أنشأهما المعظم عيسى بالقـدس ودمشق .

و من الثابت أن ظهور المدارس استلزم تطوير طراز معمارى خاص بها . وقد قام هذا الطراز على اتخاذ الايوان قاعة عامة للدراسة و للصلاة ، فضلا عن تزويد المدرسة بمساكن للدارسين . و يتمثل نضج هذا الطراز فى التصميم المعروف بالتمامد أو المتقاطع Cruciform Plan : وهو الذى يشتمل على فناء مربع أو مستطيل فى منتصف كل جانب من جوانبه الأربعة ايوان مفتوح عليه ، و يقام بين الايوانات و حول أركان الفناء قاعات أخرى و مساكن للدارسين . و ظهر هذا التصميم بصفة خاصة فى القرن السابع الهجرى (٣ م) ، و من أمثلته فى العراق المدرسة المستنصرية ببغداد ، التى أنشأها الخليفة العباسى المستنصر بالله سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) ، و خصصها لتدريس المذاهب الأربعة ، و خصص لكل مذهب ايوانا و ألحق بها خزانة كتب و ميسأة و حمامات و مطابخ و بيمارستان . و ربما كانت المدرسة المستنصرية أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة .^(١) (ابن بطوطة : ح ١ ص ١٣٥) .

و كانت مدرسة الفقه تتوسط أقسام المدرسة و كان بها المسجد . ولم يقتصر التدريس فى المدرسة المستنصرية على الفقه بل شمل علوما أخرى . هذا وقد نجت المستنصرية مثلها مثل المدرسة النظامية ببغداد من تخريب هولاء و تيمور لذك و اندمجتا معا فى سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٥ م) .^(٢)

و يتضح هذا التخطيط التمامد أيضا فى مدرسة أرضروم ذات المنارتين

(١) ابن بطوطة ح ١ ص ١٣٥ .

(٢) ناجى معروف : علماء المستنصرية

التي أنشأتها خوند خانون ابنة علاء الدين كيقباز الأول سنة ٦٥١ هـ /
(١٢٥٣ م) ومن ثم أطلق عليها أحيانا اسم المدرسة الخاتونية • وتشتمل
على صحن مستطيل يوجد في جوانبه الأربعة عقود مديبة أربعة حسب الطراز
السلجوقي • وترجع أهمية هذه المدرسة إلى إيواناتها • ويحيط بالفناء
من ثلاثة جوانب بأبواب تشتمل على عقود مديبة تتركز على ستة عشر عمودا •
ويبلغ عدد حجرات المدرسة في الطابقين تسع عشرة حجرة توجد بين الإيوانات
ويصعد إلى الطابق العلوي عن طريق درج مشيد في أحد أركان الصحن
وترتكز عقود البائكة الطابق العلوي على ثمانى دعائم • ويوجد في جنوب المدرسة
ضريح قد تهدم الإيوان الذي كان مقاما أمامه • ومن المعتقد أن هذا الضريح
قد بنى في عصر متأخر عن عصر بناء المدرسة ولكن قبل نهاية العصر السلجوقي^(١) •

وبدأ إنشاء المدارس في عصر المماليك على يد السلطان الظاهر بيبرس
الذى أنشأ المدرسة الظاهرية في سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م)^(٢) على
أنقاض قاعة الخميم • وكانت تشتمل على أربعة أروابن متعامدة على
جوانب فناء مربع : خصص منها الإيوان القبلى للمذهب الشافعى • والمقابل
له للمذهب الحنفى • والإيوان الشمالى الشرقى لدراسة الحديث • والجنوبى
الغربى للقراءات السبع • وجعل بها الظاهر خزانة كتب • وبنى بجانبها
مكتبا لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم • كما أنشأ بها مساكن للطلبة
والمدرسين •

Yetkin (Suut Kemal), Ozguç (Tahsin), Sumer (١)
(Faruk), Ulken (Hilmi Ziya), Cagatay (Neset,
Karmagarali (Haluk), Turkish Architecture, PP.65-66.

Creswell (K.A.C.), The Muslim Architecture of (٢)
Egypt, II, P.127.

وافتتحت الدراسة بها بحضور السلطان ، وأنشدت القصائد اشادة
بها وبنشئها وما قاله السراج الوراق فيها :

فشيدها للعلم مدرسة غسدا عراق اليها شقيق وشام
ولا تذكرن يوما نظامية لها فليس يضاهاى ذا النظام نظام (١)

ولا تزال بقايا مباني المدرسة الظاهرية تشاهد على الناصية الجنوبية
لشارع المعز لدين الله الفاطمي مع شارع بيت القاضي . ولم يبق منها غير الايوان
الشرقي : ويعرف الآن باسم جامع طاهر ، وكذلك الكف الأيمن لبابها
الأصلي وعليه اسم منشئها وتاريخ أنشائها (٢) . ولهذه المدرسة أهمية
معمارية : ذلك أنها أقدم مدرسة معروفة في مصر ذات أوابين أربعة متعامدة
على جوانب فناء . ومن الملاحظ أنها لم تخصص لتدريس المذاهب الأربعة
ما قد ينفي الصلة بين الأوابين الأربعة المتعامدة على جوانب الفناء وبيئ
المذاهب الأربعة .

واتبع نفس التخطيط المتعامد في المدرسة المنصورية (٣) التي بناها
السلطان المنصور قلاوون (٤) ضمن مجموعة منشآته (٥) التي كانت تشمل -

-
- (١) ربما كان ذلك اشارة الى تخطيطها المتقاطع .
 - (٢) كان لهذه المدرسة باب جميل من النحاس منقوش عليه اسم السلطان الملك
الظاهر بيبرس بسنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) تاريخ صنعه .
 - (٣) تقع تجاه المدرسة الظاهرية .
 - (٤) تم بناؤها سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) .
 - (٥) دكتور حسن الباشا : السلطان قلاوون . كتاب القاهرة ص ١٣٢ - ١٤٠ .

بالإضافة الى المدرسة - على ضريح وبيمارستان و حمام عامة و حوض لسقى الدواب
و قيسارية و سبيل و كتاب .

ورتب السلطان قلاوون بالمدرسة دروسا للفقهاء على المذاهب الأربعة
ورتب لكل مذهب مدرسا وثلاثة معيدين و خمسين طالبا ، و عين في المدرسة
متصدرا لاقرأ كتاب الله (١) ، و اماما شافعيًا ، و أربعة مؤذنين و رئيسا لهم ،
و بوابة واحدا ، فضلا عن القومة و الفراشين (٢) . و كان لا يعين بها
الا أعظم الفقهاء . و كان يلقي بها الى جانب الدروس الدينية دروس في
الطب (٣) ، و كان التطبيق العملي له يتم بالبيمارستان .

و كانت المدرسة تشتمل على فناء أوسط ذي جوانب أربعة (دور قاعة)
و في جوانبه الأربعة أروابن أربعة : ايوانان كبيران : هما ايوان القبلة و الايوان
المقابل له ، و ايوانان صغيران في الجانبين ، و كان يفتح على الفناء ستة
عشر بابا تؤدي الى مساكن الطلاب و المدرسين و الى الميضة ، و كان يتوسط
الفناء فسقية أو نافورة (٤) .

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٣ ص ٧١٧ .

(٢) وقف السلطان قلاوون على المدرسة أوقافا كثيرة ، و جعل مرتب المقرئ
أربعين درهما ، و المدرس مائتين ، و المعيد خمسة و سبعين ،
و لكل طالب خمسة عشر .

(٣) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٤) وثيقة وقف بدختر خانة وزارة الأوقاف المصرية رقم (٧٠٦ جديد)
تاريخ اسجاليها الحكى سنة ٦٨٥ هـ (فبراير ١٢٨٦ م) عن د /
سيف النصر أبو الفتح .

ولم يبق من المدرسة المنصورية الآن غير ايوان القبلة أى الايوان الجنوبي الشرقى وواجهتها (١)

وإذا كانت المدرسة الظاهرية و المدرسة المنصورية قد اندثر معظم مبانيهما فإنه قد وصلنا من عصر المماليك البحرية مدارس لا تزال محتفظة بمعالها الأصلية وأهمها بالقاهرة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٥ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) و مدرسة آل ملك الجوكندار (٧١٩ هـ - ١٣٥٩ م) و مدرسة صرغتمش (٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م) و مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ - ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦٢ م) و مدرسة أم السلطان شعبان (٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م) و مدرسة الجاى اليوسفى (٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) .

و بلغ التصميم المتقاطع Cruciform Plan قمة تطوره فى مصر فى عصر المماليك البحرية فى مدرسة السلطان حسن التى تعتبر من أعظم الآثار المعمارية فى العالم .

(١) وصف شرف الدين البوصيرى المدرسة المنصورية بعد بنائها فى قصيده من شعره جاء فيها :

بناء كأن النحل هندس شكله

ولانت له كالشمع فيه صخور

وربما كان فى ذلك اشارة الى ما بالباني من مقرنصات تشبه خلايا النحل . ومدح الشاعر معين الدين عثمان بن سعيد التميمى السلطان قلاوون بقصيده جاء فى أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانا

لتصح الاديان والأبدان .

وتشغل مدرسة السلطان حسن مساحة مقدارها ٧٩٠٦ مترا مربعا ،
وكان من المقدر عند تصميم المدرسة أن تشتمل على أربع مآذن : اثنتان بركنسى
الواجهة الشرقية ، واثنتان بكنفى الباب الرئيسى ، غير أنه لم يتيسر سوى
أقامة مئذنتى الواجهة الشرقية ، وكذلك المئذنه الثالثة بالكف الأيمن للباب
الرئيسى ، وقد سقطت هذه المئذنه عقب بنائها (٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) (١)
ومن ثم صرف النظر عن بناء المئذنه الرابعة ، وقد أعيد بناء المئذنه القائمة
بالركن الشمالى الشرقى سنة ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) وترتفع المئذنه الجنوبيه
الشرقية عن صحن الجامع أكثر من ٨١ مترا .

و للمدرسة مدخل فخم منكسر يودى الى فناء مربع تقريبا طوله حوالى
٣٤ مترا وعرضه ٣٢ مترا ، فى وسطه فسقيه مغطاه بقبة ، وحول الفناء أربعة
ايوانات ، أكبرها ايوان القبلة ويتميز بالارتفاع الكبير ومقدار فتحته نحو ٢٠ مترا
وبه محراب ومنبر من الرخام ، وعلى جانبيه المحراب بابان يوديان الى قبلة
الضريح ، ويبلغ كل ضلع من أضلاعها أكثر من ٢٠ مترا وارتفاعها ٤٨ مترا
وقد جددت سنة ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) .

وحول أركان الفناء ، وبين الايوانات شيدات مدارس أربعة يتكون كـل
منها من قاعة وصحن فى وسطه فسقيه ، ومن عدة طبقات بها غرف تشرف
على صحن المدرسة وعلى الواجهات الخارجيه .

وتقع قاعات المدرسة الحنفية فى الركن الجنوبى من الصحن والمدرسة
الشافعية فى الركن الشرقى ، والمدرسة المالكية فى الركن الشمالى ، والمدرسة
الجنبلية فى الركن الغربى .

ويستدل من حجج السلطان حسن التي وصلتنا أن تجمع وظيفة المبنى بين المسجد الجامع والمدرسة ، وأن يكون الايوان القبلي لاقامة الخطبه ولقراءة المصحف ولجلوس الشافعية مع مدرسهم لأداء وظيفة الدرس ، والايوان البحري للحنفية ، والايوان الشرقي للمالكية ، والايوان الغربي للحنابلة .

وبخارج المدرسة بالجهة الشمالية الغربية وجدت آثار مبان فرعية يشتمل الطابق الأرض منها على دورة المياه ، وعلى امتداد جدران هذا المكان مرافق و منافع متنوعة . ومن ملحقات المدرسة أيضا ساقية بالزاوية الجنوبية الغربية .

ويرى الاستاذ حسن عبد الوهاب أن مهندس مدرسة السلطان حسن هو محمد بن بيليك المحسنى الذى اكتشف اسمه ضمن كتابة أثرية بالمدرسة الحنفية وقد جاء فيها " ٠٠٠٠ وكتبه نشو دولته وشاد عمارته محمد ابن بيليك المحسنى " (١)

(١) مكس هرتريك : جامع السلطان حسن . تعريب على بهجت . لجنه حفظ الآثار العربية . الحكومة المصرية . المطبعة الاهلية ١٣١٩ هـ - ١٩٠٢ م . حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م . ص ١٧٩ - ١٨١ ، د . حسن الباشا : الفنون الاسلامية . والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية . ١٩٦٦ م مادة " نشو " ، " شاد المماثر " ، حجج السلطان حسن : محكمه رقم ٣٧ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢ وأوقاف رقم ٨٨١ عن على حسن زغلول : رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) : ملاحق .

وقد حظى مصدر التصميم المتعامد بدراسات كثيرة على يد علماء الآثار
الاسلامية كما اختلفت آراؤهم حول نشأته من حيث:

- نسبته الى طراز فنى معين ، أو من حيث تأثره بمبنى ذى وظيفة محددة .
- فمن حيث الطراز الفنى تراوحت آراء العلماء الذين تعرضوا لدراسة نشأة
تصميم المدرسة بين الفن البيزنطى (Van Berchem) (١) والفن
الساسانى (Herz) (٢) والفن الاسلامى (احمد فكرى) (٣) والفن
البوذى (Diez) (٤) .

أما من حيث تحديد وظيفة المبنى الذى يعتقد تأثر تصميم المدرسة به

(١) Van Berchem (Max), Corpus Inscriptionum Arabi-
carum, I, Egypte, Memoires publiés par les Membres
de la Mission Archéologique Française au Caire, XIX,
Paris, 1894, P.268.

(٢) Herz (Max), Bulletin du comité de conservation
des Monuments Arabes, Le Caire, 1904, PP.98,99.

(٣) د . احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثانى . العصر
الايوبى ص ١٨٣ - ١٩٢ . ناقش الدكتور احمد فكرى معظم الآراء التى
تناولت الكلام عن الأصل المعمارى للمدرسة فى كتابه المذكور ص ١٢٥ - ١٤٠

(٤) Aslanapa (O.), Turkish Art and Architecture
London 1971, P. 79 After Diez.

- و قد اختلفت وجهات النظر ما بين الكتيبة
والدير (Aslanapa) (٢) والقاعة
والدار (عباس حلي) (٤) والقصر (Godard) (٥) والمسجد
(احمد فكري) (٦) .

Van Berchem (Max), op.cit., P.268.

(١)

Aslanapa (O.), Op.Cit., P.79

(٢)

Creswell (K.A.C.), Op.Cit., P.129

(٣)

(٤) د . عباس حلي كامل : المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتهما
الاثرية . نشأتها وتاريخها وتخطيط عمارتها . مجلة كلية الشريعة
والدراسات الاسلامية . مكة المكرمة . السنة الثالثة . العدد
الثالث ١٣٩٧ - ١٣٨٩ هـ . ص ١٥١ - ١٥٩ . ناقش
الدكتور عباس حلي كامل الآراء المتعلقة بالأصل المعماري للمدرسة
بما في ذلك رأى الدكتور أحمد فكري . ص ١٣٧ - ١٥١ .

Godard (A.), L'Origine de la Medrasah, de

(٥)

la Mosquée et du Caravanserail à quatre Iwans, in
Ars Islamica, XV-XVI, 1951, PP.1-9, Sobrde1.

Thomine (J.), La Mosquée et la Madrasa, CCM. XIIIe.

Année, No.2, 1970, PP.97-115.

(٦) د . احمد فكري : المرجع السابق ص ١٨٣ - ١٩٢ .

ومن المسلم به أن هذه المحاولات ألقت أضواء كثيرة على دراسة الأصل المعماري والاجتماعي لتصميم المدرسة ، وان كانت لا تخلو من قصور أو أخطاء .

والحق أن أسلم طريقة لتفهم نشأة تصميم المدرسة وتطورها في العالم الاسلامي ولا سيما ذلك التصميم الذي اصطلح على تسميته بالتصميم المتعامد أو المتقاطع Cruciform Plan هو أن يبحث في ضوء الأمور الآتية :

أولاً : الطراز المعماري الذي كان سائد في المنشآت الاسلامية بصفة عامة ، ذلك أن كل طراز معماري معين يفرض بعض خصائص لا بد وأن تظهر في المنشآت المعمارية التي تنسب اليه .

ثانياً : وظيفة المدرسة ، ذلك أن المصمم يتحتم عليه أن يراعى في تصميمه ملائمة لوظيفة المبنى .

ثالثاً : الظروف البيئية المعمارية التي نشأت فيها المدرسة أولاً ، إذ أنه من المسلم به أن كل تصميم يتأثر بطبيعة الحال بظروف البيئة المعمارية التي نشأ فيها .

وذلك كله مع التسليم بأثر الضرورات الانشائية^(١) وكذلك الاختلافات المحلية بسبب الظروف البيئية .

أما من حيث الامر الأول : أي أثر الطراز المعماري السائد بالمشآت الاسلامية في تصميم المدرسة فمن الملاحظ أن المنشآت العامة الاسلامية على اختلافها قد تأثرت بصفة أساسية بتصميم المسجد الجامع الذي يتألف من فناء أو مربع أو مستطيل تحيط به في جوانبه الأربعة أروقة أرمية ، ونشأ هذا التصميم أسوة بتصميم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة

1. Grabar (Oleg), K.A.C. Creswell, Muslim Architecture of Egypt, in Ars Orientalis, IV, 1961, PP.426-427.

المنورة و متأثراً بنظام أروقة المسجد الحرام بمكة المكرمة التي أضيفت اليه
(سنة ٢٦ هـ / ٦٤٦ م) في خلافة عثمان بن عفان .
و ظهر أول نموذج لهذا التصميم في مسجد الكوفة حين أعيد بناؤه في ولاية
زياد بن أبيه (سنة ٥١ هـ / ٦٧١ م) ، كما استخدم في المسجد النبوي
الشريف حين أعيد بناؤه (سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ م) ، في خلافة الوليد بن عبد الملك
و اتبع في تشييد المساجد الجامعة في القرون الخمسة الأولى بعد الهجرة
ولا يزال مشاهدا في كثير من المساجد حتى اليوم (١) .

و من الملاحظ أنه حسب هذا النمط العام صممتى المنشآت العامه
الاسلامية في معظم الأحيان كالأربطة والخوانق والخانات أو الوكالات وحتى
القصور والبيوت ، غير أنه استبدل بالأروقة في كل منها كل بناءية مناسبة
لوظيفتها . و تبعاً لذلك صارت المدرسة تشتمل في تصميمها المتطور على فناء
أوسط مربع أو مستطيل تحيط به الكتل البنائية المناسبة لوظيفة المدرسة : أي أن
تصميم المدرسة قد تأثر بالطراز المعماري السائد في المنشآت الاسلامية بعامة (٢)

و من الواضح أن هذا التصميم العام الذي يشتمل على فناء في وسط أقسام
المبنى يساعد على توفير الضوء والهواء والهدوء ، فضلا عن مناسبه للتقاليد
الاسلامية وذلك من حيث حجب الشاغلين للمبنى عن الأنظار في خارجه :
اذ أن معظم النوافذ في هذا التصميم تفتح على الفناء الأوسط لا على الشوارع
الخارجية .

أما من حيث الأمر الثاني الذي ارتبط به تصميم المدرسة وهو الوظيفة
فمن المعروف أن المدرسة كانت تجمع عادة بين ثلاث وظائف رئيسية و هي :

(١) د . حسن الباشا : مدخل الى الآثار الاسلامية من ١٢٢ - ١٢٣ -
(٢) تحسن الدكتور احمد فكرى لاثبات هذا الرأي . انظر . أحمد فكرى :
المرجع السابق ص ١٦٧ - ١٩٢ .

اقامة الصلاة الجامعة ، و التدريس ، و اقامة الدارسين أى أنها : كانت تجمع بين المسجد ودار العلم وبيوت السكنى (١) ، و من ثم كان من المفترض أن يراعى فى تصميم أقسامها حول الفناء صلاحيتها لاداء هذه الوظائف .

و فى سبيل تحقيق الوظيفة الأولى للمدرسة : أى صلاحيتها لاقامة الصلوات الجامعة كان من المناسب أن تشمل المدرسة على مبنى رحب مرسع التخطيط أو مستطيله ، و موجه نحو القبلة ، و مزود بحراب و منبر كما هـى الحال بالمساجد ، و قد تحقق ذلك بتزويد المدرسة بايوان رحب موجه نحو القبلة و به حراب و منبر ، كما كان مستطيل التخطيط : مثله فى ذلك المشـل سائر الأواوين كما كان فى معظم الأحيان أكبر أو اوين المدرسة (٢) ، و قد اصطلح على تسمية هذا الايوان بايوان القبلة .

و تأكيداً لصلاحية المدرسة لوظيفه الصلاة كانت المدارس فى كثير من الحالات تشمل على مآذن أو منارات كما كانت الحال فى المدارس المصرية التى كانت عادة تزود بمئذنه وكذلك فى مدارس السلاجقة بآسيا الصغرى التى كانت فى بعض الحالات تشمل على منارتين (٣) (شكل ٦)

أما فيما يتعلق بالوظيفة الثانية للمدرسة و هى التدريس الذى كان من أهم وظائف المدرسة و منه اشتق اسمها فقد كان من الضرورى أن تشمل المدرسة على قاعة للمحاضرات العامة ، و قد يزداد عدد قاعات المحاضرات

(١) المرجع نفسه ص ١٩٢ .

(٢) فى حالة قيام المدرسة بتدريس تخصص واحد كان ايوان التدريس هو فى الوقت ذاته ايوان القبلة .

(٣) Kuran (Aptullah), Anadolu Medreseleri I Cilt, Ankara, 1969, PIs. 237,286,288.

العامه حسب عدد التخصصات التي تدرس بالمدرسة (١) ، وقد وصل عدد القاعات العامة في بعض المدارس أربع قاعات : وذلك لقيام هذه المدارس بتدريس أربعة تخصصات كانت في أحيان كثيرة تمثل فقه المذاهب الأربعة . و اذا تأملنا التصميم العام الذي لدينا - وهو عبارة عن فناء أوسط مربع أو مستطيل تقوم فسي جوانبه الأربعة أقسام المبنى التي تكون الجسم الأساسي للمدرسة - فان أفضل وضع للقاعات العامة أن تكون على الأرجح حول الفناء ، ومن الأنسب أن تكون فسي وضع محوري أي في منتصف الجوانب ، على أن تستخدم القاعة الكائنة في جانب القبلة للصلوات الجامعة فضلا عن التدريس ، وبالتالي أن تكون متسعة نسبيا ، ومن هنا صارت هذه القاعة هي ايوان القبلة . وجرت العادة أن يخصص هذا الايوان لتدريس المذهب الذي يميل اليه منشي المدرسة .

ونظرا لاختلاف عدد التخصصات التي كانت تدرس بين مدرسة وأخرى كان عدد قاعات المحاضرات العامة يخضع عادة لعدد التخصصات (٢) : فمثلا كانت المدارس في سوريا تخصص في معظم الأحيان لك ريس علم واحد أو مذاهب من المذاهب الفقهية الأربعة ، وفي بعض الأحيان لمذهبين ، ولذلك كانت المدارس السورية في حالة التخصص أو المذهب الواحد تتألف من مصلى وبهمو مستطيل ، وقلما وجد فيها أكثر من قاعة واحدة متسعة أو ايوان في أحد جوانب البهو ، أما في حالة المذهبين فكانت المدرسة تشمل على ايوانين متقابلين بينهما فناء مربع التخطيط ويحف به من الجانبين حجرات لسكنى الدارسيين . وبصفة عامه كانت المدارس السورية ذات تخطيط قائم الزوايا موجه نحو القبلة (٣) .

(١) Creswell (K.A.C.), Op.Cit., P.121.

(٢) من المتعقد أنه لم تكن هناك علاقة بين عدد قاعات المحاضرات

العامه والايوان وبين عدد المذاهب خاصة في مدارس الأناضول

انظر Kuran (Aptullah), Op.Cit., P.VII.

(٣) د . حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ح ٢

ص ١٠٥٤ - ١٠٥٥ كان من النادر أن تزود المدارس السورية بمئذنه على

عكس المدارس المصرية . ومنذ عهد نهر الدين محمود (٥٤١ هـ - ٥٦٩ هـ /

١١٤٦ - ١١٧٤ م) صارت المدرسة السورية يلحق بها ضريح لمنشي المدرسة

واتبع هذا التقليد في مصر ولاسيما في عصر المماليك .

أما في مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التي بدأ إنشاءها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد^(١) ومن ثم كان تصميمها قريب الشبه من تصميم المدارس السورية المخصصة لتدريس مذهب واحد^(٢) ، ولكن في عصر المماليك صارت معظم المدارس المصرية يدرس فيها المذاهب الأربعة^(٣) ، ومن ثم صارت تشتمل على أربعة أواوين محورية حول فناء^(٤) مربع التخطيط فسي معظم الأحيان ، وكان إيوان القبلة هو أكبر الأواوين في حين كان الإيوانان الجانبيان متساويين^(٥) .

(١) وذلك باستثناء المدرسة الكاملة التي خصصت لتدريس الحديث النبوي الشريف ، والمدرسة الصالحية التي خصصت لتدريس المذاهب الأربعة .

(٢) Van Berchem (Max), Op.Cit., P.208.

(٣) سبقت الإشارة إلى أن المدرسة الصالحية كانت مخصصة لتدريس المذاهب الأربعة ويمكن اعتبار تصميمها مرحلة انتقال إلى تصميم المدرسة ذات الأواوين الأربعة المحورية الذي ظهر في مصر في المدرسة الظاهرية والمدرسة المنصورية .

(٤) في حالة المدرسة ذات الحجم الصغير كان الفناء يسقف ، كما كان يستثنى عن قبة المسقفية التي جرت العادة أن تقام بالفناء الغير المسقف .

وقد أطلق على فناء المدرسة في الوثائق المملوكية اسم درقاه ، وظهر الفناء المسقف في بعض مدارس آسيا الصغرى في عصر السلاجقة حيث كان يسقف بقبة (انظر Kuran 'Aptullah' Op.Cit., P.VII) وكذلك في مصر في عصر المماليك الجراكسة حيث كان الفناء الأوسط يغطي في معظم الأحيان بسقف خشبي تتوسطه شخصيه .

(٥) كان لطراز المدرسة ذات الأواوين الأربعة المتعامدة على جوانب الفناء أثره على تصميم المساجد في مصر في القرن التاسع الهجري (١٥ م) حيث شيدت مساجد حسب هذا التصميم دون أن تكون مخصصة للتدريس .
أنظر حسن عبد الوهاب : نشأة المساجد ورسالتها ص ٦ .

تناولنا حتى الان دراسة أثر وظيفتين من وظائف المدرسة فى تصميمها :
و نعى بذلك الصلاة و التدريس ، وبقى أن نبحث أثر الوظيفة الرئيسية الثالثة
و هى توفير أماكن الإقامة للدارسين .

و من الملاحظ أن هذه الوظيفة الثالثة هى التى تميزت بها المدرسة
عن المسجد باعتبار أن كلا منهما قد استخدم للصلاة الجامعة و التدريس ، ففى
حين كانت المدرسة تصمم بحيث تشمل على مساكن للدارسين ، بالإضافة إلى
استيغاف الغرضين الآخرين .

و الحق أن ضرورة تزويد مبنى المدرسة بمساكن إقامة هى التى ساعدت
على ظهور الطراز المحورى من جهة وعلى ابدال أروقه المسجد بأواوين المدرسة
من جهة أخرى : ذلك أن الايوان لا يشغل جانب الفناء كله ، و من ثم كان من
الممكن بناء المساكن بين الأواوين و حول أركان الفناء ، و من جهة أخرى كان
الايوان عادة ذات سقف مرتفع (١) بحيث يمكن أن يعادل ارتفاع الايوان ارتفاع
عدة طوابق من المساكن وقاعات الدراسة الأخرى التى يمكن تشييدها بين
الأواوين (٢) .

غير أن الاهتداء الى هذا التصميم يصعب التوصل اليه من أساسه
بدون أن يكون له أصل معمارى ، و من ثم يأتى دور العامل الرئيسى الثالث
فى نشأة و تطور التصميم المعمارى للمدرسة : وهو أثر الظروف المعمارى بالاقليم

(١) شيد سقف الايوان مرتفعا حتى يتناسب مع رحابة الايوان .

(٢) يمثل التصميم المثالى للمدرسة المحورية المصرية ذات الوظائف الثلاث :
الصلاة و التدريس والسكن - فى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة
التي وصلتنا بجميع معالمها الاصلية تقريبا

الذي نشأت فيه المدرسة (١) .

ومن الثابت أن أقدم المنشآت التي أطلق عليها اسم المدرسة ظهرت أولاً في شرق إيران ، ثم أخذت تنتشر غرباً (٢) ، ومن ثم يفترض تأثر تصميمها بالنظم المعمارية السائدة في إيران وبخاصة استخدام الأيوانات الذي يعتبر ظاهرة معمارية متوارثة في إيران (٣) .

ومن جهة أخرى فإن ترتيب الأواوين محورياً حول فناء قائم الزوايا استخدم في إيران كما يتضح في تصميم المسجد الجامع في اصفهان عند تعميره في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، وفي مسجد زواري (٥٣٠ هـ / ١٣٥ م) (٤) .

وليس من شك في أن ترتيب الأواوين حول فناء أوسط قائم الزوايا ظهر تأثيره أيضاً في المدارس السلجوقية كما يتضح في مدارس الأناضول (٥) ، وانتقل إلى مدارس العراق (٦) ومصر (٧) مع خضوع كل منها للتقاليد المعمارية المحلية

(١) وذلك بالإضافة إلى العاملين الآخرين اللذين سبق شرحهما وهما الطراز المعماري السائد في المنشآت الإسلامية ووظائف المدرسة .

(٢) د . حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية . القاهرة ١٩٢٦م ص ١٠١

(٣) Godard (A.), Op.Cit., PP.1-9

(٤) Ibid, P.9.

(٥) Kuran (Aptullah), Op.Cit., P. VIII; Figs. 118, 124; PIs. 237, 286, 288.

(٦) لم يصلنا آثار المدارس المبكرة في إيران أو في العراق ، غير أن المدرسة المستنصرية ببغداد التي وصلتنا آثارها تشمل على فناء أوسط مستطيل تفتح عليه أواوين كما سبق أن ذكرنا .

(٧) من المعتقد أن الترتيب المحوري حول فناء قائم الزوايا ظهر تأثيره

أيضاً في الدور المصرية منذ العصر الطولوني . انظر Richmond (E.T.), Moslem Architecture, P.106-109.

وكذلك د . عباس حلمي كامل : المرجع السابق ص ١٥١ - ١٥٩ .

في بعض العناصر والزخارف ، ومن ثم كانت قاعات المحاضرات أو التدريس في
هذه المدارس على هيئة ايوانات تفتح على فناء أوسط (١) .

ومن الواضح أن تأثير تصميم المدرسة في شرق العالم الاسلامي بتصميم
المدرسة السلجوقية يتفق مع ما كان للنظم السلجوقية بعامة من تأثير في نظم
الدول الاسلامية التي أعقبتها : ذلك أن النظم السلجوقية صارت الأساس
الذي تطور منه كثير من النظم الاسلامية اللاحقة في شتى المجالات الادارية
والاجتماعية والفنية والمعمارية : كما يتضح في دول الأتابكة والأيوبيين والمماليك
والايلخانيين والعثمانيين (٢) ، وكان من الطبيعي أن يتبع التصميم المعماري
للمدرسة في عصر الأتابكة وسلاجقة الروم والأيوبيين والمماليك عمارة المدرسة
السلجوقية .

وهكذا يتضح كيف أنه قد تضا فرت في نشأة التصميم المعماري للمدرسة
عوامل رئيسية هي الطراز المعماري السائد في المنشآت العامة الاسلامية ووظيفة

(١) Wiet (Gaston) et Hantecoeur (Louis), Les Mosquées
du Caire, I, P.266, Herzfeld, Studies in Architecture,
in Ars Islamica, II, Vol.X, PP.14-16, 29; Diez (Ernst),
The Principles and Types, in A survey of Persian Art,
Vol.III, P. 921.

(٢) د . حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ١١٣ -

المدرسة التي تتلخص في الصلاة والتدريس وتوفير السكن للدارسين ، ثم الظروف البيئية المعمارية في القطر الذي نشأت فيه المدرسة .

هذا ويجب ألا نهمل أهمية الجانب الانشائي في التصميم : ذلك الجانب الذي أمكن بفضل أن تبقى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة حتى اليوم بناءً شامخاً يطاول الزمن ، حيث يلاحظ أن مباني المدارس والساكن حول الأواوين قد نفذت بحيث تقاوم الرفس القوي لقبوات الأواوين الضخمة .

ملحوظة :

• اقرأ البحث موضحاً بالشرائح .

المراجع العربية

أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
القاهرة ١٩٧٢ .

د . أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثانى العصر الأيوبى .
القاهرة سنة ١٩٦٩ .

بـراون : تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى . ترجمة ابراهيم
الشواربى . القاهرة سنة ١٩٤٠ .

ابن بطوطه : تحفة الانظار فى غرائب الأمصار . مصر ١٣٢٢ هـ .

البندارى : زبداء العصرة ونخبة النصر .

ابن جبير : رحلة ابن جبير . بيروت سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى . مصر ١٩٠٢ م .

د . حسن الباشا : دراسات فى تاريخ الدولة العباسية . القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

: دراسات فى الحضارة الاسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

: السلطان قلاوون . كتاب القاهرة تاريخها فنونها آثارها .

القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

: الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية . القاهرة

سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .

: مدخل الى الآثار الاسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية . القاهرة سنة ١٩٤٦ .

: نشأة المساجد ورسالتها .

السبكي : معيد النعم ومبيد النقم .

السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى .

د . السيد عبد العزيز سالم : مدارس فاس (بيوت الله : مساجد ومعاهد)
القاهرة ١٩٥٩ م .

د . عباس حلمي كامل : المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتهما الأثرية
نشأتها وتاريخها وتخطيط عمارتها . مجلة كلية الشريعة والدراسات
الاسلامية . مكة المكرمة . السنة الثالثة . العدد الثالث ١٣٩٧ -
١٣٩٨ هـ .

عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة .

د . عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .

العمري : التعريف بالمصطلح الشريف مصر سنة ١٣١٢ هـ .

: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا . القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٩ م .

كرد علي : خطط الشام .

محمد أسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب .

د . محمد مصطفى نجيب : نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة

خلال العصر المملوكي . مجلة كلية الآثار - الكتاب الذهبي . القاهرة

سنة ١٩٧٨ م .

المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . القاهرة سنة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م .

: الموانع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

ناجي معروف : التوقيعات التدريسية .

: علماء المستنصرية .

النويسرى : نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة .

النعماني (عبد القادر بن محمد) : ت ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) .

المدارس في تاريخ المدارس .

Deschamps (Max Van), Inscriptions Arabes de l'Égypte, Recueil de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Paris, 1903.

Combe (E.), Sauvaget (G.) & Miret (G.), Aperçu Chronologique d'Épigraphie Arabe Le Caire de 1937.

x x x x

Croswell (K. A. C.), The Muslim Architecture of Egypt, The Origins of the Cruciform Plan of Cairo and Madrasas, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale Tome XXI, pp. 1-59, Le Caire, 1922.

Encyclopaedia of Islam.

Gullard (A.), L'origine de la Madrasa, de la Mosquée et du Caravansérail à quatre iwans, In Ars Islamica, Vol. XV, XVI, 1951.

Grube (E. S.), The World of Islam - London 1957.

Mouton (L.) & Miret (G.), Les Mosquées du Caire Paris 1942.

المراجع الاجنبية

Aslanapa. (O.), Turkish Art and Architecture, London .

Berchem (Max Van), Matériaux pour un Corpus
Inscriptionum Arabicarum. Egypte,, Mémoires de
l'Institut Français d'Archéologie, Orientale, Was
Egypte, Paris 1903.

Combe (Et.), Sauvaget (G.) & Wiet (G.), Répertoire
Chronologique d'Epigraphie Arabe Le Caire de 1931.

Creswell (K.A.C.), The Muslim Architecture of Egypt,
The Origins of the Cruciform Plan of Caire ne
Madrasabas, Bulletin de l'Institut Français d'
Archéologie Orientale Tome, XXI, PP.1-54, Le Caire,
1922.

Encyclopaedia of Islam.

Godard (A.), L'origine de la Madrasah, de la Mosquée
et du Caravanseraïl à quatre Iwans, in Ars Islamica,
Vol. XV, XVI, 1951.

Grube (E.G.), The World of Islam. London 1967.

Hautecoeur (L.) & Wiet (G.), Les Mosquées du Caire.
Paris 1932.

Herzfeld (E.), Studies in Architecture. in Ars Islamica.
I, Vol. IX, 1942; II, Vol. X; III, Vol. XI, XII.

Hitti (Ph.), History of the Arabs.

Kuran (A.), Anadolu Medreseleri. I Cilt, Ankara 1969.

Marçais (G.), Les Monuments Arabes de Tlemcen. Paris
1903.

Saladin (H.), Manuel d'Art Musulman. I. L'Architecture.
Paris. 1907.

Sourdel Thomine J.), La Mosquée et la Madrasa, Cahiers
de Civilisation médiévale. XIIIe Année No. 2, Avril-
Juin 1970.

Yethin (S.K.), Ülken (H.Z.), Özguç (T.), Cagatay (N.),
Sumer (F.), Karamagarali (H.), Turkish Architecture.
Translated by Uysal (A.), Ankara 1965.